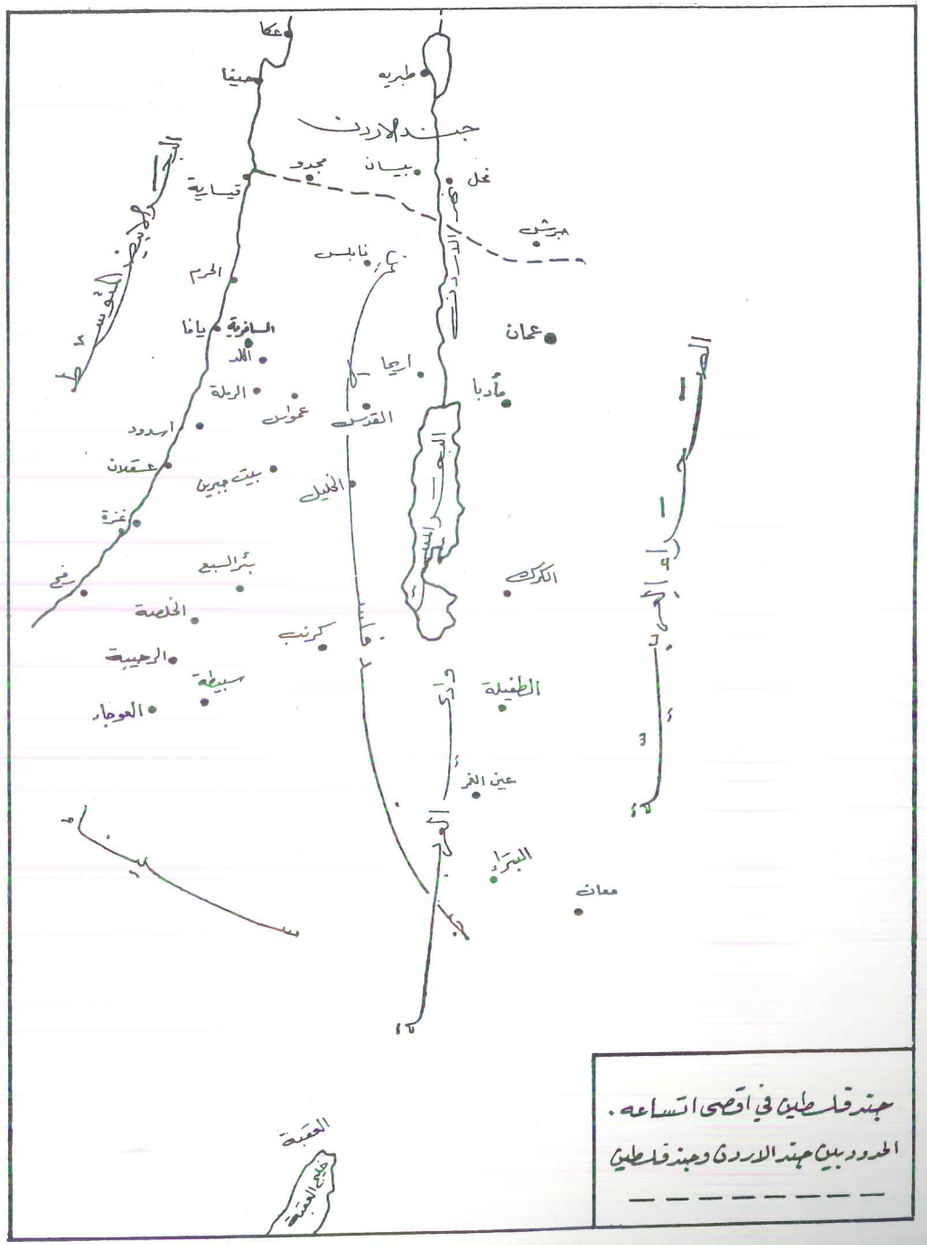

عن كتاب بلادنا فلسطين / الديار اليافية ـ لمؤلفه مصطفى الدباغ

من تراثنا الشعبي [illegible] الساحل الفلسطيني

إذا كان اليهود الغزاة قد فتحوا ملفاً لكل شجرة في بياراتنا ، وملفاً لكل رأس ماشية في اسطبلات فلسطين ... فمن باب أولى أن نفتح ملفاً كاملاً لكل قرية من قرى بلادنا الجميلة ، وليكن هذا الكتاب هو سطر في هذا الملف .

... فربّ قارئ كصلاح الدين أو (حتى) ابن جارية من أحد سلاطين المماليك ، يقرأ تراثنا « ويفهمه » باللغة العربية ، فيكون الحلّ العادل ، والدائم ، والشامل .

نشر بدعم من وزارة الثقافة

* يرصد ريع هذا الكتاب لابناء الشهداء (بمعرفة رابطة اهالي السافرية)

الحدود بين جهة الاردن وجهة فلسطين

عن كتاب بلادنا فلسطين / الديار اليافية ـ لمؤلفه مصطفى الدباغ

من تراثنا الشعبي [illegible] الساحلي الفلسطيني

في السافرية

الجزء الأول

بقلم
المحامي حسن محمد عوض

نشر بدعم من وزارة الثقافة

* يرصد ريع هذا الكتاب لابناء الشهداء (بمعرفة رابطة اهالي السافرية)

رقم الايداع لدى المكتبة الوطنية
(١٩٩٤/٩/٩٠٨)

رقم التصنيف : ٣٩٨٫٨٥٦٤
المؤلف ومن هو في حكمه : حسن محمد عوض
عنوان المصنف : من تراثنا الشعبي في السهل الساحلي الفلسطيني
رؤوس الموضوعات : ١ ـ الفلكلور الشعبي
٢ ـ الاغاني الشعبية ـ فلسطين
رقم الايداع : (١٩٩٤/٩/٩٠٨)
الملاحظات : عمان : جمعية عمال المطابع
* ـ تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

موافقة دائرة المطبوعات والنشر
رقم الاجازة المتسلسل ١٩٨٦/٥/١٦٦

الطابعون
جمعية عمال المطابع التعاونية
هاتف ٢ ـ ٦٣٧٧٧١ ـ فاكس ٦٣٧٧٧٣
ص.ب ٨٥٧ ـ عمان ١١١١٨ الأردن

الاهـــــداء

إلى نجمة الصبح (الاسم القديم) : بلد النـــدى والشذى ، والعشق والعطـر ، وزهـــر البرتقال ، بلد الطيور ، واسراب القطا ، ورفوف الزرزور . موطن الفرح : الشبابة والمجّوز ، والدبكة والعتابا وزريف الطول .

إلى السافريـــة : الأرض الطيبة ، والتراب الطهور ، والوطن المقدس المجبول بدم الشهداء الزكي ، حيث سهل البيارات وساحل البحـــر المتوسط (الأبيض) موطن الكنعانيين وشاطئ الفنيقيين .

الى فلسطين : أزكى بلاد الشام[١] ، والواحة التي أفلتت من الجنة[٢]. ثغر ديار الإسلام ، المتصدّي والمتحدّي دائماً لموجات البرّ والبحر العاتية كلّها .جبال الثورات، واغوار الخيرات .

إلى موطن الاسراء والمعراج : مسقط الرأس ـ وقبلة المسلمين الأولى .

المحـــامي
حسن عـــــوض

---

(١) الأصطخري ، وابن حوقل ، أما أبو الفداء فيقول عنها : أرخى بلاد الشام (مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، الديار اليافية ، ص١) .
(٢) نفس المصدر ص ٩٥ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـديم

جهد علمي متميز في حب الوطن

د. عمر عبدالرحمن الساريسي
جامعة الاسراء

يقوم المثقفون ، من ابناء الشتات الفلسطيني ، منذ عقدين من الزمان ، بالعودة الى ديارهم ، على الرغم من جميع المعوّقات المادية والنفسية التي يصنعها المحتلون ، وهم لا يستطيعون الا العودة ، فالمكان هو الانسان ، في جميع مراحل حياته ، فكيف بأيام نشأته الأولى ؟.

وعودة هؤلاء المثقفين الى أوطانهم وأنفسهم لا تكون عن طريق الموانئ الجوية والمعابر البرية والبحرية ، وانما على صفحات الذكريات ، واستدعاء جرائد الأيام الماضية في تلك الأوطان ، بعد التأمل في أحداث الرحيل والترحيل عنها ، وما في ذلك من ابراز حلقات تآمر الذي كان منتدباً عليها ، مع المحتل المتآمر لابتلاعها . الم يتحدّث عن هذه العلاقة الحميمة ، الحيّة على الدوام ، شاعرنا العربي القديم ، حين قال :

اذا ذكـــروا أوطانهم ذكّرتهمو عهـودَ الصبـا فيها فحـــنوا لذلكا ؟

اجل ! وقد ترجموا هذا الحنين الروحي الى جهد علمي كبير . ينتزعونه من مدرجة النسيان ، ويثبّتونه على صفحات الأوراق ، زاداً طيباً لابنائهم ، ليربطهم بحبل سري قويّ ، الى هذه الأوطان التي لم يروها ، بالرغـــم من أن آباءهم عاشوا فيها وتعلقـــوا بحبها . كيف لا يتعلقون بحب أوطانهـــم ، وقد جُبلـــوا من طينها وتنفّسوا من هوائها ؟ وهذا ربّ العزة ، سبحانه ، يرفع من درجة حب الوطن الى مرحـــلة القتال في سبيله من اجل العودة إليه فيقول : ﴿ **وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا** ﴾ ؟. وفي آية كريمة أخـــرى

يجعل الخروج من الأوطان بمرتبة الانتحار فيقول : ﴿ **ولو أنا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم اواخرجوا من دياركم ما فعلوه ! الا قليل منهم** ﴾ . وحينما يدعو الشاعر على نفسه بدعاء الشر واليأس والموت يكون لب الدعوة ان يُرمى بعدو ينازعُه عليه وطنه وأرضه :

اذن فرماني اللـه مـن حيث لا أرى ولا زال في ارضـي عـدوّ أحاربـه

اجل ! ان العودة الى الأوطان حاجة نفسية عضوية غريزية لا يمكن طمسها وتجاهلها . لذلك فقد تفجّرت في شكل ذكريات تؤرخ في كتب تأريخاً شعبياً معيشاً ، يمتاح فيه الباحث من تجربته المباشرة في معايشة الوطن بأرضه وروحه وروائحه .

لم تكن هذه الكتب ابحاثاً علمية أكاديمية في التاريخ من نوع أبحاث مصطفى مراد الدباغ او عارف العارف او وليد القمحاوي ، ولكنها كانت ، كما قلنا ، تأريخاً شعبياً يعنى بتدوين الملاحظات عن الوطن من خلال الحواس والأدراك الفعلي لا عن طريق الابحاث والمراجع والدراسات .

ولقد كثرت هذه الاعمال الوطنية وتعدّدت زوايا الاهتمام الوطنية فيها ، فقد دار بعضها حول علاقة المدينة باحد الشعراء الطالعين فيها (شاعر ومدينة ـ حيفا) . وركز بعض آخر على التراث الفلسطيني بما فيه من لوحات تصوّر جوانب متعددة من حياة المجتمع الفلسطيني قبل النكبة (د. محمد علي الفرا) ، واهتم فريق ثالث بالأنساب في منطقة الدراسة والذكريات كما فعل جميل الوحيدي وباحث آخر عن حلحول وبعض قرى الخليل ، وعُني غيرهم باحد فنون الادب الشعبي بوجه خاص في قريته ومنطقته . (عبدالوهاب رشيد ابو صفية في الامثال الشعبية في خربثا ـ رام الله) ، ودارت اعمال كثيرة أخرى حول الأرض والانسان في قرى عين كارم وبيت محسير وعجّور وصيدون وفي مدن الرملة وغزة ويافا . (اما كتابنا عن قريتنا ساريس فارجو ان يهيأ ليرى النور في أقرب فرصة ممكنة) .

نقول هذا كله ، في هذه المقدمة التي لم نستطع ان نغالبها ، لنصل الى كتاب جديد من هذه السلسلة التاريخية ، واعني به كتاب اليوم عن احدى قرى ساحلنا الفلسطيني المحتل ، وأعني **قرية السافرية** بقلم ابنها البار المحامي الأستاذ حسن عوض .

ولقد عاصرت اللهفة التي كانت أولاً وراء تجميع هذه المادة ، في اواسط الستينات ، وكان المؤلف يعمل مديراً مالياً بدائرة الثقافة والفنون في عمان ، وكان يعاصر جهود الزميل الباحث نمر سرحان في الفولكلور في الضفة الغربية والضفة الشرقية من الأردن ، فصح عزمه على الكتابة عن السافرية .

ولقد أعطى المؤلف للأرض والناس ، كما يرى القارى ، نصف الكتاب ، فتحدّث عن موقع القرية وعن سكانها ومساكنها والأعمال اليدوية وأثاث البيوت وعن العائلات والحمائل فيها وعن الثروة الزراعية والبيارات ، ثم تحدث عن المأكولات الشعبية والازياء والملابس فيها ، وهذا كله يمكن تصنيفه تحت الثقافة المادية الشعبية . اما النصف الآخر من الكتاب فقد جعله تحت عنوان الثقافة الشعبية ، ولعله يريد الثقافة القولية الشعبية ، وهي قيم الثقافة المادية في القسم ، في معنى المأثورات الشعبية التي استوردنا مصطلحها (الفولكلور) واستخدمناه في كتبنا .

وتحت عنوان الثقافة الشعبية تحدّث عن المعتقدات الشعبية والتعليم وعادات الزواج وعن الحكاية الشعبية وعن الالعاب الشعبية ، وكان حقها في القسم الأول ، وتحدّث عن السلاح في البلد ، بعد ان انعطف الى الافاضة في بعض صفحات النضال ، ويا ليته ضم هذه الافاضة الى مدخل الكتاب وحديثه بعده عن الشتات ، ولقد نجح الى حد معجب الى رسم صورة التشبث بالوطن والدفاع عنه قبل حلول نكبة عام الثامن والأربعين .

ويختم الباب التالي بنصوص من الشعر الشعبي في الاغاني والبكائيات .

ولا يغيب عن لب الباحث ان جهد الصديق حسن عوض في جمع المادة القولية الشعبية وتدوينها في احدى قرى فلسطيننا المحتلة ، وحديثه لنا عنها وعن مختلف مظاهر الحياة الشعبية فيها حديث المعايش الواعي الصادق ومتابعته لدفاع أهلها عنها وجهادهم في سبيل البقاء فيها ، كل هذه العناصر تحمل على التقدير والاحترام في الوقت الحاضر منا ، ومن الأجيال الصاعدة الصامدة على الحق والخير وحب الوطن ان شاء الله .

عمان ٢٠ رمضان ١٤١٤هـ

الموافق ١٩٩٤/٣/٣م

د. عمر عبدالرحمن الساريسي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

ما كنت احسب انني سأقدم للقارئ كتاباً عن بلدي ، الذي احتله الغزاة ، رغم انه قد خطر ببالي أن افعل منذ أيام الرحيل الأولى ، لكن الظروف لم تسعفني . وقبل حوالي عشرين عاماً من الآن ، شرعت في جمع بعض نواحي تراثها ، على فترات ، واخذت استمزج الناس في نشر الكتاب ، وكان للناس مذاهب ، الى أن شجعّني بعض الباحثين .

وبطبيعة الحال ، فاني ادرك ما ينبغي ان يتوفر في الباحث من امانة ، ودقّة ، وحذر ، لكي يقدم الأصل بدلاً من الصورة ، ومع ذلك فلا يمكنني أن أدعي ، أنني أحطت بتراثنا من كل جوانبه ، خصوصاً وأن تراثنا اكبر بكثير من أن يحاط به ، فهو كالبحر لا يمكن أن يحيط به كل الباحثين عن اللؤلؤ .

وكان من الطبيعي أن أجعل من بلدي الذي ولدت وعشت وعايشت التراث فيه، عيّنة للبحث ، وهو الذي في موقعه يمثل القلب من الساحل الفلسطيني بين مدن الوسط الثلاث : يافا - عروس البحر - واللد - من أقدم مدن التاريخ - والرملة من أوائل مدن الخلافة في فجر الإسلام - ، .. بالاضافة إلى ما يحيط به من قرى، كالدرر مثل: بيت دجن ، يازور ، سلمة ، سيدنا علي، كفرعانة ، الخيرية ، العباسية، ساكية ، صرفند العمار، عرب ابو الفضل ، المزيرعة، قوله ، الطيرة ، بيت نبالا ، دير طريف، وغيرها كثير . وهو في هذا الموقع يمثل شريحة مهمة للبحث والدراسة والاستقصاء ، لإغناء تراثنا الشعبي في فلسطين ، خصوصاً قبل النكبة .

إن الاهتمام بالتراث هو جزء من الاهتمام بالوطن وبأهله ، وهو تعبير عن الوفاء ، والشوق ، والحنين، وعودة إلى الجذور في نفس الوقت. واذا كان حب الوطن من الايمان ، فإن البحث عن جذوره هو نوع من العشق الصوفي ، لا يعرفه الاّ من يعانيه ، فما بالك إذا كانت هذه الجذور هي جذور الحبيبة فلسطين !

ولا أدري - بهذه المناسبة - لماذا خطـــر ببالي « المجنون (مجنون ليلـــى) ؟؟ الـــذي ما كان ليبـــدع في وصف بلواه ، لولا أن ليـــلاه كانت بعيدة عنـــه ، .. ربما لأن وجـــه

وجه الشبه بين الحبيبتين ... انهما كانتا من نصيب الغريب ، مع اختلاف في أن حبيبته كانت زوجة ، وحبيبتنا كانت وما زالت وستظل : أماً ، واختاً ، وزوجة، ووطنا ، وهوية ، وتاريخا ، وتراثاً ، وأمجاداً ، ومستقبلاً ، ومصيراً .

... لكني أدري انه إذا كان من المسموح به لذلك الشاعر الكبير ، أن يبكي أطلال حبيبته التي هي ربما بعض حِجارة في مواقد النار في الصحراء .. نعم ، أدري انه من باب أولى ، أن نبكي مدننا وقرانا، العامرة ومجدنا وتاريخ أمتنا ، في أجمل وطن مقدّس في العالم كله . وشتّان بين ما نبكي ويبكي المجنون ، وعليه فإن دعوى الاقليمية لا تنطبق على أولئك العاشقين لتراث أجدادهم (أجداد الجميع) ، قبل أن يصبح الوطن العربي لحافا ممزّقاً ، يغطي وجوه دعاة السوء .

صحيح أن شعبي المضياف استقبل الهاربين من اضطهاد حضارات الغرب بكل طيبة ، وما كانت الطيبة « هبلا » لولا أنها كانت مع اليهود ، الذين لم يكتفوا بالأرض، وإنما إرادوها خالية من السكان أيضاً ، فطردوا أهلها ولبسوا ثيابهم ، وادعوها لأنفسهم ، حتى أن ثياب جدتي العجوز ، وأثواب أمي - المَلَكة ، والجلاية ، والخظاري ، والنعانـي ، والتلحمي ، والحَبر ، .. الخ ، التي طرزّتها كل منهما برموش عينيها ، ولبستها قبل أن تراهم ، عرضوها ، في معارض العالم على أنها من تراثهم ، واتخذوها زيّا رسمياً لمضيفات طائراتهم في شركة العال، إيهاماً للناس أن لهم جذور في فلسطين ، والحبل على الجرار ، ومن يدري !؟ ولذا فإن في كتابة التراث إفادة لهذا الجيل - جيل المنافي - وللأجيال القادمة ، الذين لا يعرفون من التراث غير كلمات مشوهة ، أو جمل مبتورة ، تضرّ أكثر مما تنفع ، مما يلقي على كاهل الباحث مسؤولية تقديم التغطية الصحيحة اللازمة لتراث تلك البقعة، من وطننا الكبير ، في الفترة التي سبقت الكارثة ، لكي تظل « الزاد والزوّادة » لأولئك البعيدين (والمبعدين) عن أرض الوطن ، قبل أن يموت جيل ما قبل النكبة وتضيع الشواهد .

أما دعاوى اللؤم ، التي مؤداها أن هذا الشعب قد نسي وطنه ، وكل ما يربطه به من تراث وجذور ، لمجرد حصوله على اللقمة المغموسة بالدم، بكل نفس ذائقة الموت ، إنما هي دعاوى باطلة ، وحلم يهودي لن يتحقق بعون الله .

ولكي تتّم الفائدة المتوخّاة ، رأيت أن أقدم لمحة موجزة في مدخـل هذا البحث أبيّن فيها كيف كان غزو الوطـن ، وكيف نُهب الـتراث ، ومن هـو الناهب ، وما هي أوصافه ، وهويته ، لتتمكن الأجيـال القادمة من معرفة عدوّهـا علـى حقيقته : بكـل أكاذيبه وأباطيلـه ، وغرضه الحقيـقي ، وحقـده ، وغـدره ، ولؤمـه . ولذلك ، فـإن بامكان القارئ أن يجد في مدخل هذا الكتاب لمحات مقتضبة عن بعض أوصاف هذا العـدو ،

موثّقة بالقرآن الكريم ، ومدعّمة بنصوص التوراة ، وبأهم المراجع التاريخية لكبار العلماء والمؤرخين ، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في أن فلسطين كانت عربية كنعانية منذ أقدم الأزمان ، وأن إبراهيم (ع) نفسه جاء من الجزيرة العربية والى فلسطين عبر العراق ومنها إلى مصر عندما أجدبت البلاد ، وبعد ذلك بـ (٧٠٠) سنة جاء موسى (ع) بمن معه ، لكنه لم يدخلها كما تقول التوراة ، التي كان قد كتبها الأحبار على هواهم أثناء السبي البابلي ، بعد وفاة موسى (ع) بزمن طويل .

وباعتراف التوراة نفسها - وهي مما كتبت أيديهم - (حتى التوراة) أن فلسطين لم تكن يهودية في معظمها ، في يوم من الأيام ، وإنما كان فيها شعبها العربي ، الذي بقي شامخاً قبل، وبعد السبي البابلي ، الى أن جاءهم اخوتهم من الجزيرة العربية ، يحملون إليهم دعوة الإسلام . وهكذا كان حال العرب في فلسطين في كل الأزمان ، بالرغم من كل ما جابههم من أمم وشعوب من : يونان ، ورومان ، تتار، ومغول ، صليبيين ، ومماليك ، اتراك مسلمين وفرنسيين ، إلى أن جاء الإنكليز واليهود تحت جناحهم (بالتواطؤ مع دول الغرب) ، حماية لمصالحهم ، ومخلباً في أيديهم ، ولقد ألمحت الى بعض أنواع الصراع الدامي الذي خاضه شعبنا الأعزل في مواجهة جميع قوى الشر والبغي، بكل ما يملكون من أدوات القهر والقتل ، سواء في سني ٣٦ إلى ١٩٤٨ ، لاعطاء لمحة خاطفة لأولئك الذين يعجبهم أن يردّدوا دعايات العدو ، التي مفادها أن شعبنا قدّم لهم فلسطين (هديّة) بدون قتال وعلى طبق من ذهب .

وبالرغم من كل ما تقدّم ، فقد عشت في بلدي مرتين ، مرة في الطفولة قبل الهجـرة (الكارثة) ، ومرة أخرى مع هذا الكتاب ، يحملني اليها كلمّا رجعت اليه ، في جمعه وتدوينه ، ومناقشة الناس في مواضيعه ، ومن خـلال تسويده وتبييضه ، وأثـناء طباعته وتنقيحه ... الخ . وكم كان يحلو لي الحديث عنه ، فلا يشبع المتحدّث ، ولا يرتّوي السامع ، آملاً أن يجد القارئ في هذا الكتاب ، ما هو في شوق اليه ، دون أن يشبع أو يرتوي ، الاّ بالعودة إلى أحضانه ، والتمرّغ في ترابه في ظلّ راية النصر ان شاء الله .

والله من وراء القصد ، وهو الهادي الى سواء السبيل .

عمان ١٩٨٦

المحامي

حسن عوض

المدخـــل

في النفس ، أشياء كثيرة ، مشتّتة ، وموزّعة ، يصعب تجميعها ، ربما لأن أسباب اختزانها كانت كثيرة ، ومريرة ، منوّعة ، ومبعثرة ، على طول محطّات رحلة العذاب ، هذه النفس التي ما زال يلهبها الشوق ، ويشفّها الحنين ، وتتجرّع مرارة الواقع المؤلم . وبالرغم من أن الضربات كانت ـ على طول طريق الآلام ـ فإنها ما زالت تتلاحق حتى هذا اليوم . فقد نفّذ الطغاة ضرباتهم على مراحل (خطوة خطوة) حسب قدرتنا على الاحتمال ، تماماً كالوصفة الطبية ، حتى أصبح لدينا المناعة اللازمة ، فلم نعد نحس بشيء مما حولنا ، وهو المطلوب .

ومع ذلك فاني أحاول أن أذكر منها ، ما لا يمكن للذاكرة أن تنساه ، مثل السير في الطريق الوعر ، حفاة عراة ، جياعا عطاشا ، والعيش تحت الاشجار بين العقارب والافاعي ، أو في بعض ما يشبه الخيام ، من أكياس الخيش ، على قمم الجبال ، في أيام الثلج العاصفة ، الى طابور المؤن ، من أجل كيلو غرام واحد من الطحين في الشهر ، وقليل من زيت « الكوكوز » الذي سبّب العمى للكثيرين ، إلى التسلل في عواصم العالم القريب والبعيد ، للعمل في ظروف معيشية متدنية ، لا تصل إلى مستوى معيشة الحيوان . إلى أن قامت على الاكتاف كل « فِلَلْ وقصور المِسْعدَين »[1] وناطحات سحابهم .

وبعدها سئل أهل فلسطين عن هويتهم ، (والسائل يعرف الهوية أكثر من المسؤول) . كيف كانت في الأصل ، ولمن تمّ تجييرها ، ومن هو المستفيد ، كما يعلم دوافع الشرّ ، والخدعة الكبرى ، التي لم تنطل على أحد ، بالرغم من قوة القمع ، وقوة الردع ، والارهاب الذي الصقوه بهم وهم منه براء .

ورغماً عن كل انواع القهر ،والجبروت ، فقد تحدّى الرجال هذا الوضع المهين ، واقسموا على الموت ، لدفع العار ، الذي أحاق بأمتهم ، وبتاريخها المجيد ، مما استفزّ الطغاة ، واستنفر كل ابواقهم وادواتهم ، لمواجهة هؤلاء الهاتفين بعدالة قضيتهم ، المطالبين بحقهم في الحياة ، متهمين اياهم بالارهاب والتخريب ، وتاريخ اليهود معروف ، وكذلك الدول المؤيدة والمساعدة لهم .

وفي محاولة مني للإجابة ، في حـدود التراث الشعبي أقول : أمـا هويتنا فهذه بعض ملامحها ، يحكـي بعضها هـذا الكتاب بكامـله ، أما الملامـح الأخـرى الكثـيرة

(١) يقال للسعيد « مِسْعَد » وجمعها (مِسْعَدين) .

الباقية ، من ثقافة ، وحضارة ، وتراث ، وآثار ، الضاربة جذورها في أعماق الأرض ، وفي جهاتها الأربع بالتحديد ، فهي مما حكاه ويحكيه التاريخ .

أما هويـة اليهـود ـ أوصافها وملامحها ـ فان الاحاطـة بها وبأسباب تزويرها أمر يعجز عنه كل كتّاب العالم ، وأن طبيعتهم ، وعقليتهم ، ما زالت تستعصي في فهمها حتى على علماء النفس ، وهي بالتأكيد لا يمكن أن يغطّيها مثل هذا البحث لأن افتراءاتهم وحدها ، وبشهادة التوراة نفسها أكبر من ذلك بكثير ، ناهيك عن أساليبهم ، وممارساتهم ، وأوصافهم، وعلى ذكر أوصافهم (فقد وصفهم القرآن الكريم بالكفر ، والجحود ، واللجاج ، والأنانية ، والزهو ، والتبجح ، والترفع عن الغير ، واعتبارهم أنفسهم فوق الناس ، وعدم الاندماج الصادق مع أحد ، وعدم الولاء الصادق لأحد ، والتضليل ، والتدليس ، والدسّ ، والشره الشديد إلى ما في أيدي الغير ، والحسد الشديد لهم، ولو تمتّعوا هم أنفسهم بأوفر النعم[1] . ومحاولة الاستيلاء على الكل ، والتأثير في الكل، واللعب في وقت واحد على كل حبل ، وفوق كل مسرح ، واستحلالهم لما في أيدي الغير ، وعدم اعتبارهم أنفسهم مسؤولين عن شيء أمامه ، وضنهم بأي شيء للغير إذا ملكوا وقدروا . وعدم مبادلتهم الغير في ودّ ، وبرّ ، ومحبّة، واندماجهم في موقف مهما دنؤ ، وفجر ، وكان فيه كفر ، وفسق ، وخيانة ، وغدر، في سبيل النكاية بمن يناوئونه ، ونقضهم لمبادئ دينهم في سبيل مكايدة مخالفيهم ، وعدم تقيدهم بأي عهد ، ووعد ، وميثاق ، وحق ، وعدل ، وواجب ، وأمانة ، وتشجيعهم لكل حاقد ، وفاسد ، ومنافق ، ودسّاس ، ومتآمر ، في سبيل التهديم ، وشفاء لداء الحسد والحقد والخداع المتأصل فيهم .

هذه هي أخلاق اليهود عامة في الحجاز، وغير الحجاز ، غابرين ومعاصرين ، وهو مؤيد بما في أسفار التوراة من لدن موسى (ع) من نعوت ، وحملات ، وتقريعات ، على ما كانوا يرتكسون فيه دائماً ، من انحرافات دينية، وأخلاقية ،واجتماعية . وأن المرء ليراهم اليوم في أخلاقهم ، صورة طبق الأصل ، لما وصفهم به القرآن الكريم ، وامتداداً لما حكته أسفارهم عنهم منذ القديم ، حتى صاروا العلَم المفردَ المجمع على شذوذه ، في كل ذلك عن سائر البشر، وكفى بإجماع البشر على اختلاف الزمان والمكان والجنس واللون ، دليلاً على تأصل تلك الجبلة ، وأن العالم ليس هو المتحامل عليهم ، نتيجة للعقد النفسية التي لازمتهم طيلة أدوار تاريخهم وما تزال . حيث يبدو من هذا هول البلاء الذي رمى به طواغيت الاستعمار ، العرب وبلادهم ليخلصوا منهم[2] .

(١) محمد عزت دروزة : تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم ص ٤٣٨ و ٤٣٩ .
(٢) نفس المصدر السابق .

لذلك فليس غريباً ، ولا مستهجناً ، أن يكون من أول ضحاياهم الانبياء أنفسهم فهذا أخوهم يوسف (ع) الذي قالوا أنه أكله الذئب وهم يبكون ، بهتاناً وزورا ، وهذا نبيهم موسى (ع) الذي ألقوه من مكان مرتفع ، وقالوا أنقذنا حكم الرّب فيه ، ظلماً وعدوانا وحاشا لله أن يظلم أحداً ، والمسيح (ع) فقد قرروا صلبه طغيانا وكفرا ، أما محمد (ص) فقد لاقى منهم ما لاقى عناداً واستكبارا ، . ولذلك فلا عجب أن يخاطبهم المسيح (ع) قائلاً (يا اولاد الافاعي : كيف تقدرون أن تتكلّموا بالصالحات وأنتم أشرار ـ الاصحاح (١٢) وقال (بيتي بيت صلاة ، جعلتموه مغارة للصوص . ويا أورشليم يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين ، هوذا بيتكم يترك خرابا ـ وعندما يقول الوالي الروماني بيلاطس : أنا بريء من دم هذا الصدّيق ـ المسيح ـ يجيبه اليهود صائحين: دمه علينا وعلى بنينا)[1] .

وجاء في الاصحاح الثاني من سفر ارميا والخطاب لليهود : (لكنكم دخلتم ونجّستم أرضي ، وجعلتم ميراثي نجسا، ويقول : خزي ال اسرائيل وملوكهم ورؤساؤهم وكهنتهم) .

وجاء في الإصحاح الخامس من سفر ارميا من التوراة : (وحين أشبعتهم فسقوا ، وإلى بيت الزانية تبادروا ، كل يصهل على امرأة قريبه) ، وجاء في نفس الإصحاح : (فقد غدَر بي غدراً آل اسرائيل وآل يهوذا ، جحدوا الربّ ، وقالوا ليس هو)[2] .

وجاء في سفر هوشع الإصحاح الأول : (ثم حبلت زوجة الزنا ، وولدت ابنا ، فقال سَمهُ ، فإنكم لستم بشعبي ، ولا أنا لكم) .

وفي الاصحاح السابع من نفس السفر : (ولا أعود أعفو من بعد ، فتدمّر مشارف اسحق ، وتخرّب مقادس اسرائيل ، وأقوم على بيت يربعام بالسيف)[3] .

ومن تتبّع نصوص التوراة ، نجد هذا الدليل الواضح كل الوضوح ، الذي لا يترك مجالاً للشك ، في أن فلسطين لم تكن لهم وما كانت في يوم من الأيام . بل كانت لأهلها العرب ، قبل اليهود ومعهم وبعدهم ، ولنتدبّر ما جاء في سفر يشوع الاصحاح الثالث عشر العدد ٢ ـ ٦ : (وقد بقيت أرض كثيرة جداً للإمتلاك ، هذه هي الأرض الباقية : كل دائرة الفلسطينيين ، وكل الجشوريين ، من الشجور الذي هو أمام

(١) محمد عزت دروزة : تاريخ بني إسرائيل من اسفارهم نفس المصدر ص ٣٦٢ و ٣٦٤ .
(٢) محمد عزت دروزة : تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم ص ٢٤١ ـ ٢٤٤ .
(٣) نفس المصدر السابق ص ٢٤٥ ـ ٢٥٠ .

مصر إلى تخم عقرون شمالاً ، تحسب للكنعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة : الغزّى ، والاشدودي ، والاشقلوني ، والحتّي ، والعقروني ، والعويين)[1] .

أولئك هم الذين ساروا في صحراء التيه أربعين عاما ، لتطمس الريح آثارهم، فيتوه الباحث وراءهم ، ولنبدأ من عند ابراهيم عليه السلام :

.. عبر إبراهيم النهر إلى فلسطين ، قادماً من الشرق ، فوجد في القدس الملك العربي الرحيم العادل (ملكي صادق) ملك العرب اليبوسيين ، وعندها بارك إبراهيم عليه السلام ودعا له ، وسمح له الملك صادق بإقامة مضاربه في جواره ، وفي هذا يقول المؤرخ القديم جوزيفوس فلافيوس : (إن الكنعانيين هم أول من بنى مدينة القدس ، حيث قد بناها رجلهم البارز المسمى « ملك صادق » أو الملك العادل ، الذي كان أول كاهن لله حيث بنى فيها معبدا وسماها أورشالم[2] .

وإبراهيم (ع) لا تمنحه رحلته العابرة مع مواشيه ، أي حق في أرض فلسطين وهو غريب فيها ، حتى انه لما قضى نحبه ، لم يدّع في أرض منحها له الرب . وإنما اشترى بماله الخاص رقعة ضيّقة وورى فيه[3] .

وجاء في سفر يشوع ٦٣/١٦ : « أما اليبوسيون الساكنون في أورشالم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم ، فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم »[4] .

واليبوسيون هم الذين أطلقوا على المدينة التاريخية اسم « اورسالم » أي مدينة السلام ، وورد في التوراة « أرشالم » او « شالم » فقط ، أي مدينة الاله شالم، وشالم هذا إله من آلهة اليبوسيين العرب ، والاسم الذي يستعمله اليهود اليوم وهو « أورشليم » اسم عربي الاصل ، ورد في نقش مصري قديم ، يرجع الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد »[5] . وقد ورد الاسم « اورسالم » في لوحة من الواح تل العمارنة الموجودة في المتحف المصري بالقاهرة . ويرجع تاريخها الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد أي قبل دخول العبرانيين الى فلسطين[6] .

(١) عارف باشا العارف النكبة ج ٤ ص ٨٥٨ .
(٢) إبراهيم بكر / أبحاث مجلة نقابة المحامين ، ملحق رقم ٢ سنة ١٩٧٨ ص ١٧ .
(٣) محمد أديب العامري / عروبة فلسطين في التاريخ ص ١٠١ .
(٤) نفس المصدر ص ٨٦ .
(٥) نفس المصدر / ص ٨٦ .
(٦) نفس المصدر ص ٨٦ / عن القدس ، للدكتور حسن ظاظا ص ٧ .

وتقول الدكتورة كنيون ـ عالمة الآثار البريطانية المعروفة ـ في معرض الكلام عن حفرياتها الحديثة في القدس سنة ١٩٦١ وما بعدها : انه لا أثر لأية أبنية يمكن أن يقال أنها بقية مما سمي « مدينة داوود » ، وتقول وهي ـ المتعاطفة معهم ـ : قد يبدو مخيّباً للآمال أن لا تكشف الحفريات عن أي أثر لأبنية من مدينة داوود، وتؤكد انه لم يبق أي أثر لأي بناء ـ حتى ـ من عهد سليمان ولا الهيكل نفسه ، ولا حائط المبكى[١] . وأن حائط المبكى بالذات اثر اسلامي مقدّس ، وأنه بكل حجر ومدماك فيه طولا وعرضا بما فيه الرصيف المقابل والمنطقة الملاصقة له داخل أسوار المدينة القديمة ملك عربي ووقف إسلامي خالد ، وان لا حقّ إطلاقا لليهود في ملكية أية ذرة من ذراته « جاء ذلك في تقرير اللجنة الدولية الى فلسطين سنة ١٩٣٠ »[٢] .

ولما أصاب القحط البلاد في بعض السنين ، ولان العبرانيين كانوا بدوا ، فقد رحل بهم إبراهيم إلى مصر ، وفي ظهره اثنان ابنه البكر اسماعيل ، والثاني اسحق ، ولا ندري كيف يرث اسحق دون إسماعيل ، مع أن الابن البكر (اسماعيل) أولى بالميراث ، إذا كان لا بد من التعصّب لواحد على حساب الآخر ، ثم (... يا أهل الكتاب ، لم تحاجّون في إبراهيم ، ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، ان أولى الناس بإبراهيم للذين اتبّعوه وهذا النبي والذين آمنوا ، والله ولي المؤمنين[٣] .

وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الشهير آرنولد توينبي : إذا كان العالم كله ينتمي لرب العالمين ويخضع لارادته ، فان الهدف الأعلى لهذه الإرادة ، لا يمكن أن يكون إعادة تأسيس دولة يهودية على الأرض الفلسطينية[٤] .

وفي مصر ـ كما تقول التوراة ـ قدّم إبراهيم (ع) زوجته سارة إلى فرعون على أنها أخته مخافة من الموت . وبعد (٧٠٠) سنة جاء موسى (ع) ومن معه عبر صحراء سيناء ، يحمل اليهود منهم المسروقات التي أخذوها عارية مستردة من جيرانهم المصريين ، وهربوا بها، وهي مما خفّ حمله ، وغلا ثمنه ، وعلى مشارف فلسطين تمرّدوا على موسى كعادتهم أثناء التيه . وقالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا أنا ههنا قاعدون ، وهو دليل على الكفر وعلى الجبن وفي ليلة من الليالي تخلّصوا منه على النحو الذي مرّ معنا .

(١) محمد أديب العامري / عروبة فلسطين في التاريخ ص ٩٠ ـ ٩١ .
(٢) نفس المصدر ص ٩٢/ عن وليد الخالدي ـ الحق العربي في حائط المبكى في القدس .
(٣) قرآن كريم .
(٤) إبراهيم بكر / أبحاث مجلة نقابة المحامين ملحق رقم (٢) سنة ١٩٧٨ ص ١٢ .

وبعد ذلك ، تسلّلوا إلى فلسطين عن طريق أريحا ـ العامرة قبلهم ـ بواسطة إحدى البغايا، فاحرقوا أريحا بما فيها من إنسان وحيوان ، ثم تسلّلوا وسط السكان العرب إلى جبال القدس ، ومن ثم إلى نابلس ، إلى أن تمكّنوا من إقامة ما سمي مجازاً بمملكتي يهودا والسامرة ، الأولى في القدس ، والاخرى في نابلس ، في الوقت الذي كان فيه الفلسطينيون يملأون بقية انحاء فلسطين وبالأخص السهل الساحلي الفلسطيني، الذي كان شوكة في عيون اليهود[١] إلى أن تم تدميرها على يد نبوخذ نصر ، وأجهز الرومان على البقية الباقية . أما عرب فلسطين فقد ظلّوا على حالهم في غرب البلاد ، وشرقها ، شمالها ، وجنوبها ، إلى أن استجابوا لدعوة الإسلام التي حملها إليهم إخوتهم من جزيرة العرب .

إن إبراهيم الخليل (ع) لم يدخل فلسطين غازيا ، ولا محاربا ، ولا فاتحا ، ولا محتلّا ، وإنما حلّ ضيفا ، بين أهله وعشيرته ، شأنه شأن بقية القبائل العربية الأخرى[٢] ، ومن المسلّم به، أن العرب الكنعانيين قد نشأوا أصلاً في فلسطين قبل إبراهيم (ع) ، وهو العربي ومن جزيرة العرب ، وأن ابراهيميون كثيرون وجدت لهم أسماء على ألواح بابل في العقود والمقاولات . هذا وإن الفاصل الزمني بين ذهاب إبراهيم (ع) من فلسطين ، ومجيء موسى (ع) أكثر من (٧٠٠) عام . وان قوم موسى (ع) كانوا يتكلّمون اللغة المصرية ، وبها نَقلت الوصايا العشر ، وكتبت باللغة الهيروغليفية المصرية . وان موسى (ع) كان قائداً مصرياً حارب في الحبشة ، وتزوج امرأة منها على قول التوراة[٣] .

ويقول العلاّمة بريستد : عندما جاء قوم موسى إلى بلاد كنعان ، كانت المدن الكنعانية ذات حضارة قديمة ، نشأت منذ (١٥٠٠) سنة ، ومنازل متقنة ، فيها كثير من أسباب الراحة ، وفيها حكومة ، وصناعة ، وتجارة ، وعلم ، ومعرفة بالكتابة ، وديانة . فغادر بعض العبرانيين سكنى الخيام ، واتخذوا بيوتا كالكنعانيين ، وخلعوا عنهم جلود الحيوانات ، ولبسوا الثياب الكنعانية المصنوعة من منسوجات صوفية زاهية[٤] . ويقول ول . ديورانت في قصة الحضارة ص (٣٦٨ ـ ٣٧٠) : ان أساطير الجزيرة العربية كانت المعين الغزير الذي أخذت منه قصص الخلق والطوفان ، وأخذ اليهود بعضها من الأدب البابلي أثناء أسرهم[٥] .

(١) الرحالة أندرو تومسون / ترجمة سليمان الموسى .
(٢) الدكتور أحمد سوسة / العرب واليهود في التاريخ ـ حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية ص ٥٩ .
(٣) نفس المصدر .
(٤) نفس المصدر ص ٢٢٢ / عن د. جيمس بريستد .
(٥) نفس المصدر ص ٢٢٠ / عن طه باقر .